تفسير

سورة الكافرون

تفسير سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل يا أيها الكافرون (١) لا أعبد ما تعبدون (٢) ولا أنتم عابدون ما أعبد (٣) ولا أنا عابد ما عبدتم (٤) ولا أنتم عابدون ما أعبد (٥) لكم دينكم ولي دين (٦)﴾

(١)
في ربط السورة بالتي قبلها

قد علمت أن في سورة الكوثر بشارة لظهور هذه الأمة وسمو أمرها وجمع شملها، وحكما على قطع عدوها من الشجرة المباركة للإسلام. فأتبعها بهذه السورة التي تعلن بقطع حبال المودة من الكفار، وتركهم مقطوعين عن الأمة المباركة، كما ستعرف من تفسيرها.

(٢)
في أن السورة سورة البراءة والحرب

اعلم أن هذه السورة سورة التبرؤ من الكفار، وقطع حبالهم، والمنابذة بعلائق مودتهم. فهي سورة الهجرة والحرب مثل سورة البراءة التي قدمت بين يدي فتح مكة، كما أن هذه قدمت بين يدي الهجرة منها. وكلتاهما إعلان بالحرب. وهذه أفصحت عن البراءة بجملتها، كما أن تلك

صرحت بها بأولها.

وهكذا فهمها السلف لما سموها. قال الرازي رحمه الله: "اعلم أن هذه السورة تسمى سورة المنابذة والإخلاص والمقشقشة"[1]. وفي لسان العرب: "في الحديث كان يقال لسورتي قل هو الله، وقل يا أيها الكافرون: المقشقشتان"[2].

ولنفسر هذه الأسماء لأنها تهدي لتأويل السورة. فالمنابذة هي المنابذة بعلائق المودة، كما قال تعالى: ﴿فانبذ إليهم على سوآء﴾ [سورة الأنفال/٥٨]. وأما الإخلاص فهو تفريق المؤمنين من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [سورة آل عمران/١٤١]. وهذا غرض بعثة الأنبياء كما سنبينه. وإخلاص الباطن سبب لإخلاص الظاهر. فالتوحيد أصل الفرقان والتطهر من المشركين، كما سنبينه.

وأما "المقشقشة" فهي ما تنبئ عن دنو البرء والتطهر من الرجس. فإن "القشقشة": تهيؤ البرء. وأصلها: تقشر الجلد بعد القرح والجدري. فما أفصح هذا الاسم عن الحقيقة. فإن الهجرة، والبراءة، والحرب فيها تخشن وكراهية، ولكن تحتها صلاح وخير ونعمة. فهذه الأسماء تطابق معنى السورة.

وهكذا فهمنا من القرآن. فإن الله تعالى أمر النبي بالبراءة في أول

[1] التفسير الكبير ٣٢: ١٣٦ .

[2] انظر (قشش) في اللسان .

النبوة. جاء في سورة الشعراء: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. فإن عصوك فقل إني بريئ مما تعملون. وتوكل على العزيز الرحيم﴾ [سورة الشعراء/٢١٤-٢١٧]. وهكذا في سورة يونس: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريئ مما تعملون﴾ [سورة يونس/٤١]. وهذا مثل قوله تعالى في هذه السورة: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ [الآية /٦]. وفي سورة الأنبياء: ﴿فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون﴾ [الآية/١٠٩]. فإن كفار مكة وأطرافها لما أبوا إلا الكفر والبغضاء، وهموا بالقتل والإخراج، أمره الله بإعلان البراءة والهجرة والحرب.

وهكذا سنة الله، فإن الرسل مأمورون بالصبر، وتحمل الأذى، وانتظار الفتح. فإذا أوغلت الكفار في الشر، وهموا بالإخراج والقتل يؤمرون بالبراءة والهجرة وإعلان الحرب، وانتقام الله. فبعد ذلك يأتي وعد الله فيبيد الظالمين ويستخلف المؤمنين. وهذا هو الغرض من البعثة. وفصلناه في كتاب ملكوت الله[1]، وسيأتيك بعض الشواهد.

(٣)

البعثة بالضرورة تجر إلى البراءة والهجرة والنصر

فاعلم أن بعثة رسول إلى قوم يوم بحران ذلك القوم. فإما أنهم يهلكون إلا شرذمة منهم، فهم يستخلفون كبعثة نوح عليه السلام وأكثر الرسل. وإما أنهم يحيون حياة جديدة بعد وشيك الموت كبعثة إبراهيم وداؤد

[1] نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٩١هـ.

ويوسف ومحمد عليهم الصلوة. وإما أن تحيى أمة وتهلك أمة كبعثة موسى ومحمد عليهما الصلوة لإزهاق أمة فرعون وكسرى انتقاما لذرية يعقوب وإبراهيم، كما قال في سورة يونس: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون. ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [سورة يونس/٤٦-٤٩].

فترى أن الرسل ما جاءوا إلا لإحياء أمة صالحة وإهلاك أمة فاسدة. فإنهم ما أرسلوا إلى أمة إلا كذبتهم، وهذه سنتهم، كما قال تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن﴾ [سورة يس/٣٠]، وكما قال: ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث﴾ [سورة المؤمنون/٤٤].

وكذلك من سنتهم أن يهموا بأخذ النبي، فيقتلوه أو يخرجوه، كما ترى القرآن يذكره في قصص الأنبياء. ومنه قوله تعالى: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب. وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ [سورة غافر/٥-٦]. أي إنهم مهلكون حسب سنة الله: وهي أنهم إذا هموا بأخذ النبي جاء نصر الله.

ومن سنة النصر أنه يقع بعد الهجرة والبراءة من الذين كفروا،

فلابد منها. والشاهد عليه كثير. ومنه قوله: ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين. كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز. لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ [سورة المجادلة/٢٠-٢٢].

فقد أخبر بعد ذكر سنة غلبة المرسلين عن سنة المؤمنين من البراءة، ثم عن سنة الله أنه يغفرلهم ويدخلهم في حزبه، وهم المفلحون وستأتيك شواهد أخر في الفصول الآتية.

وفي قوله تعالى: ﴿أنا ورسلي﴾ الواو للبيان. وقد بين في هذه الآيات أن النصر لحزب الله، وأن غلبتهم غلبة الله ورسله. فإن بعض الرسل لم ينصروا في حياتهم. فكان موتهم هجرتهم، وهذا أشد على الكافرين، كموت يحيى وعيسى عليهما السلام.

والشاهد على أن غلبة المؤمنين من غلبة الرسول قوله تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ [سورة غافر/٥١]. فاستعمل واو البيان لتعلم أن غلبة المؤمن غلبة الرسول، وغلبة الرسول غلبة الله. وذلك تأويل قوله تعالى: ﴿لأغلبنّ أنا ورسلي﴾. وعلى هذا الأصل جاء قوله تعالى: ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ [سورة غافر/٧٧]. ومثله قوله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين

اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ [سورة آل عمران/٥٥].

وفي هذه السنة من الله تعالى فرقان بين الحق والباطل. فالغالبون هم حزب الله.

(٤)
النصرة والغلبة تأتي على إثر الهجرة عن قريب

فالنصح والدعوة والصبر، ثم البراءة والهجرة، ثم النصر حتى يظهر الحق على الباطل ليس بأمر يختص بمحمد ﷺ، بل هذه سنة الله برسله، وطريق عدله بخلقه. كما ذكر في أكثر الآيات وجعلها عمودا لبعض السور وأكثر ذكرها في بعض. فانظر سورة الأعراف وهود ويوسف والنحل. وليكفنا ههنا بعض آيات جامعة جاء في سورة بني إسرائيل: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ [الآيتان/٧٦-٧٧]. وهكذا قوله تعالى: ﴿حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا﴾ [سورة يوسف/١١٠]. فعلمنا أن النبي إذا هاجر اقترب للناس حسابهم، فينتصر الإسلام وينكسر الكفر. وهذه هي سنة الله.

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردّوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به و إنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب. قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا

إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين. قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشآء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون. وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا و لنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون. وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودون في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد. واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد. من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾ [سورة إبراهيم/٩-١٦].

فذكر ما يقع بالرسل عموما. فلتكن هذه الآيات نصب عينيك في تذكرك لسنة الله في عباده. فالرسول يدعوهم إلى التوحيد والتوبة، ويعدهم المغفرة، ويقر بأنه عبد وليس بيده النصر غير التوكل على الله، ويصبر على أذاهم. وترى فيه قول الكفار بأفواههم أنهم كفروا بما أرسل، وارتابوا في التوحيد، وأزمعوا على إخراج الرسول من أرضهم. ثم ترى فيه وعد إهلاك الظالمين واستخلاف المؤمنين بعدهم ثم الرسول يستفتح ويخيب كل جبار ومن ورائه جهنم.

(٥)
النبي أمان والبراءة مهلة لكي يتوب من يتوب

في هذه الآيات وإن لم يصرح بالبراءة والهجرة، ولكنها مدرجة في قوله تعالى: ﴿لنهلكن الظالمين ... وخاب كل جبار عنيد﴾ [سورة إبراهيم/١٣-١٥]. فإنك ترى مما جاء في قصص الأنبياء أن الإهلاك يأتي

بعد الهجرة. فإن الرسول أمان للأمة مادام فيهم، حتى إذا استيئس منهم وأذن له بالهجرة فحينئذ يعلن الرسول بالبراءة، ويهاجرهم لعلهم يضرعون، كما وقع لقوم يونس.

فإذا هاجرهم الرسول اقترب الفتح والعذاب إن لم يتوبوا ويستغفروا، كما قال في سورة الأنفال: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون. وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياءه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [الآيتان/٣٣-٣٤]. فبين أنهم قد استحقوا العذاب، وسلب ولاية بيته. ولكن الله تعالى لا يعجل بالعذاب مادام فيهم رسوله والصلحاء حتى يهاجروا عنه. فإن لم يتوبوا يعذبهم الله.

وأبلغ كلام فيه كلام عيسى عليه السلام حين رأى النساء يبكين، فقال: "يا بنات يروشلم لا تبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن"[1]. فإن هجرة عيسى عليه السلام كان من الدنيا لشقاوة اليهود به. وهو قد أخبرهم عن ذلك، ولكنهم لم ينتبهوا، وقست قلوبهم. فأخذهم الله بعد مهلة أربعين سنة. واتل ست آيات من أول سورة البراءة، فتعلم أن البراءة حتى الأخيرة لا تخلو عن مهلة ورجاء توبة.

(٦)

الاستدلال على كون السورة براءة من عبارتها إجمالا

فإن تأملت في ألفاظ هذه السورة، وقايستها بما مضى من الآيات

---
١ انجيل.

يوشك أن يتضح لك أنها سورة التبرؤ والهجرة. ولكن نضم إليها آيات أخر ليتبين لك الحق صريحا. ونعتمد في ذلك على قول إبراهيم عليه السلام حين هاجر من قومه. فإن رأيت قوله قبل هجرته يشابه ما في هذه السورة علمت أنها أيضا كلام قبل الهجرة.

(الف) ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآؤا منكم ومما تعبدون من دون الله. كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضآء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأ ستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ [سورة الممتحنة/٤].

فقوله: ﴿بدا بيننا وبينكم العداوة والبغضآء أبدا﴾ إعلان بالهجرة والحرب. وقوله ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ دعاؤه، عند ما هاجر قومه للنصرة.

(ب) وكذلك أعلن بقطع حبال الأوثان، وكانت هي التي جمعت المشركين، كما ستعلم. فبذلك تبرأ من المشركين، حيث جاء في سورة الشعراء: ﴿قال أ فرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدولي إلا رب العالمين﴾ [الآيتان/٧٥-٧٧]. فهذا الكلام غليظ في أسلوبه لإظهار العداوة بهم وبآبائهم.

(ج) قال في سورة الزخرف: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني برآء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ [سورة الزخرف/٢٦-٢٨].

قوله: "فإنه سيهدين" أي إلى موضع الهجرة، كما سنبين لك.

وقوله: "في عقبه": أي بعد ما هاجرهم تهديدا ونصحا لهم، لكي يرجعوا عن الشرك.

وقال المفسرون الكلمة الباقية كلمة التوحيد[1]. وقال بعضهم تسمية أتباعه بالمسلمين[2]. وكلا المعنيين بعيد. ألا ترى ما قال إبراهيم لأبيه وقومه، فهذا القول هو المراد من "الكلمة الباقية". وقالوا معنى "في عقبه": في أولاده[3]. وهذا الخطأ متفرع من الخطأ الأول.

(د) وصرح الله تعالى بهجرته بعد البلاغ المبين، حيث قال في سورة العنكبوت ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا، فابتغوا عند الله الرزق، واعبدوه واشكروا له، إليه ترجعون. وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم، وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ [الآيتان/١٦-١٨].

ثم ذكر الله سنته من استبدال قوم بعد قوم كالجملة المعترضة حتى عاد فقال: ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين. فآمن له لوط وقال إني

[1] انظر الطبري ٢٥: ٣٨-٣٩، وابن كثير ٤: ١٢٩.

[2] المرجع السابق.

[3] المرجع السابق.

مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم. ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ [الآيتان/٢٤-٢٧]

(ه) ومثل ذلك قوله بعد ما كسر أصنامهم، كما جاء في سورة والصافات: ﴿قال أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وما تعملون. قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم. فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين. وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين. رب هب لي من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم [الآيتان/٩٥-١٠١]. ثم ذكر قصة إسماعيل عليه السلام، ثم قال: ﴿وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين﴾ [الآية/١١٢].

(و) وتصريح الهجرة مع تفصيل القصة ترى في سورة الأنبياء. وفيها يتبين لك كيف بلغ الخصام غايته حتى هاجر، حيث قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ [سورة الأنبياء/٦٧-٦٨]. ثم ذكر كيدهم به وخسرانهم، ثم قال: ﴿ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين. ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين﴾ [سورة الأنبياء/٧١-٧٢].

وإن تأملت في هذه الآيات تبينت وقت الهجرة. فإن بعدها بشر بالأولاد، وقبلها ضيق وخوف. وصرح بذلك في سورة مريم: ﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليا، قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا. وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا. فلما اعتزلهم وما

يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا﴾ [الآيتان/٤٦-٤٩].

وهذه هجرة إبراهيم عليه السلام أمر متفق عليه. إنما بدلت اليهود تفصيلها، ولكنهم لم يكتموا أمر الهجرة. ففي سفر التكوين، الإصحاح الثاني عشر ١-٢: وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. ٢ فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة".

وإذ كانت القصة مشهورة مأثورة لم يأت بها القرآن إلا تذكارا ونصيحة حسب موقع الكلام. فهذه الآيات كلها مع آيات أخر تتعلق بواقعة واحدة: وهي أنه عليه السلام أقام مدة مع قومه ينصحهم، ويحاجهم، ويداريهم حتى يئس منهم أن يتعظوا بكلامه. فالتجأ إلى أن يمثل لهم أن الأصنام لا يملكن لهم ضرا ولا نفعا لعلهم ينتبهون، أو تقوم عليهم الحجة. فكان كما ظن. فإنه لما كسر الأصنام رجعوا إلى أنفسهم، فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤسهم حياء وفضيحة، واعترفوا بضلالتهم. فبعد ذلك وبخهم على سوء عملهم، فأخذتهم حمية الجاهلية وقالوا حرقوه وانصروا آلهتكم. وأوعده أبوه بالرجم. فحينئذ بلغ غرض النبوة منتهاه، وأمر بالهجرة. فتبرأ منهم وصدع بالقول الدامغ كما قد ذكرنا. وسنذكر بعض ما بقي عند تأويل ألفاظ السورة.

(٧)

في خطابهم باسم "الكافرون" دلالة على البراءة

اعلم أنه تعالى لم يخاطبهم في جميع القرآن بهذا الاسم إلا في هذه

السورة، فإنهم أيأسوا النبي عن الإيمان بما أرسل به وأعلنوا أنهم ملتزمون كفرهم. وهذا لابد أن يكون قبل الهجرة، كما مر في (٤): ﴿فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ [سورة إبراهيم/٩].

فهذا هو قول المستكبرين الذين يتجاسرون بسيء القول، كما جاء في سورة سبأ: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ [الآيتان/٣٤-٣٥]، وكما جاء في سورة القصص عن فرعون وأصحابه: ﴿قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون﴾ [الآية: ٤٨]. وكما جاء في الزخرف عن المترفين: ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ [الآية: ٣٠]. وأيضا فيها: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ [الآيتان/٢٣-٢٤]. أي سواء كان أهدى أم لم يكن فإنا لسنا بتاركين طريق آبائنا، وإنا كافرون بما أرسلتم.

فتبين لنا من هذه الآيات أن خطابهم بهذه الكلمة ليس من الشتم كما زعم الرازي رحمه الله[1]. فالمتفوه بهذا القول ليس بمؤمن أبدا. فإنه ليس فيه أثر من الخشية. وهم المترفون أئمة الكفر، أعداء كل خير حتى

---

[1] وهو يقول: " فلما نزلت السورة وقرأها على رؤوسهم شتموه ... لأن هذه السورة بتمامها نازلة فيهم ، فلابد أن تكون المبالغة ههنا أشد وليس في الدنيا لفظ أشنع ولا أشبع من لفظ الكافر". انظر تفسيره ٣٢: ١٤٤.

يعذبوا ويقتلوا تقتيلا.

وتاريخ الأمم شاهد على ذلك. فإن الجبابرة وقرناءهم لم يعطوا الرعايا حقوقهم إلا بعد القتال وسفك الدماء. فهكذا فعلهم مع الأنبياء. فإذا تمت عليهم الحجة وهم لا يرجعون ضرب عنهم الصفح. وأما البغي والخروج على أولي الحكم والأمر فهدم لقانون المعاشرة كما فصلنا في كتاب ملكوت الله. فالنبي حينئذ يتبرأ منهم. وفي القرآن والكتب المقدسة آيات كثيرة في ذلك، كقوله تعالى: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾ [سورة النجم/٢٩-٣٠].

(٨)
الآيتان (٢-٣) عبارة عن البراءة

اعلم أن الرابطة الجامعة في الأمم كانت آلهتهم. فالقبائل الشتى اتخذت آلهة متفرقة، والتي أرادت مودة أخرى عبدت آلهتها حتى أن كثرة الأمم في مملكة تكثر آلهتهم. وهكذا كان دأبهم في الأيام الخالية، وكانوا يعدون هذا من مصالحهم ويستزيدون الأوثان لتأتلف قلوبهم، كما علمنا القرآن في ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾ [سورة العنكبوت/٢٥]. وقد شهد بذلك تاريخ الأمم الوثنية، كالروم والهند.

فإذا قيل لهم: ﴿لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ فكأنه قيل لهم: أنا بريء منكم وأنتم براء مني. وهكذا كان قول إبراهيم عليه السلام وأصحابه، كما مر في الفصل السادس (الف، و ب، و ج).

وإنما قال: ﴿أنتم عابدون﴾ عوض "تعبدون" لحسن موقعه، ولكنه استعمل للحال لقرينة ﴿لا أعبد﴾. وهكذا فهم ابن جرير رحمه الله[1].

(٩)
الآيتان (٤-٥) لتأكيد البراءة

البراءة يقتضي إيضاحا وتأكيدا في القول. وأسلوب بلاغة القرآن أنه عند التكرار يزيد فائدة جديدة، كما ترى في إيراد القصص والحكم. وقلما تجد تكرارا محضا. فكلمة: "عابدون" يقطع الرجاء في المستقبل، وكلمة: "عبدتم" براءة عن دين آبائهم. وفيه غلظة، كما ترى في قول إبراهيم عليه السلام في سورة الأنبياء: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ [الآيتان/٥٢-٥٤]، وكما قال تعالى: ﴿أ فرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدولي إلا رب العالمين﴾ [سورة الشعراء/٧٥-٧٧]. أي لسنا بعابدين إلهكم وإله آبائكم أبدا، ولا أنتم عابدون أبدا إلهنا.

(١٠)
الآية الأخيرة كلمة جامعة باقية في البراءة

قوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ كلام كالخاتمة الجامعة لما مر. فقوله تعالى: ﴿لكم دينكم﴾ يساوي: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ ﴿ولا أنا عابد

[1] انظر الطبري ٣٠: ٢١٣-٢١٤ .

ما عبدتم﴾، وقوله تعالى: ﴿ولي دين﴾ يساوي: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾، وأيضا: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾.

ولكونه جملة اسمية عم الأزمنة الثلاث. فهذه الآية لإيجازها كانت كمثل سائر، وقول لا ينسى، وكلمة باقية كما جاء عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إنني برآء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ [سورة الزخرف/٢٦-٢٨]. وهكذا يعلن قبل الهجرة، كما أعلن هود عليه السلام: ﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أني برئ مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون﴾ [سورة هود/٥٤-٥٥].

فترك محمد ﷺ هذا القول ناشبا في قلوبهم، فلم يستقر بهم القرار. فإنهم علموا أن دينه هو دين الله. وأوعبهم من الوعيد في مدة إقامته فيهم، فتركهم وهم في رعدة. فكانت الهجرة أشد الإبلاغ لعلهم يرجعون. وقد رجع من قومهم كثير غير من حق عليهم العذاب فقتلوا وأهلكوا.

وهكذا قدم أشد الإبلاغ عند فتح مكة، فأرسل إليهم سورة البراءة، فآمنت العرب به فسميت سورة التوبة. وهذه السورة وإن فصلت من سورة التوبة ولكنها ضمت بسورة فيها التوبة الكبرى. انظر فصل (١١) لتعلم أن الهجرة ثم العذاب من أسباب الهداية، كما قال تعالى: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾ [سورة السجدة/٢١].

(١١)

الإستشهاد بالأحاديث على أن الهجرة كانت حربا وبراءة

قد بينا فيما سبق (٥) مستندين بالآيات أن الهجرة إعلان بالحرب

والويل. والآن نورد من الأخبار ما يشهد بأن قريشا اتخذوا الهجرة مقدمة للحرب واستعدادا لها. قال ابن جرير الطبري في تاريخه بروايته:

"أن القوم لما اجتمعوا وهم سبعون رجلا وامرءتان بالشعب لبيعة رسول الله ﷺ قال أحد رؤساء الخزرج وهو العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري ثم أخو بني سالم بن عوف: "يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم. قال إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن، فهو والله خزي الدنيا والآخرة إن فعلتم" إلى آخر الحديث[1].

وكذلك روى في حديث آخر: "عن كعب بن مالك أنه قال: فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا يا معشر الخزرج إنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم" إلى آخر الحديث[2].

وكذلك روى أنه حين كان يتكلم البراء بن معرور الأنصاري آخذا بيد رسول الله مبايعا له اعترض القول أبو الهيثم، وكان من حلفاء اليهود، قائلا: "يا رسول الله أن بيننا وبين الناس حبالا و إنا قاطعوها يعني

---

[1] تاريخ الأمم والملوك ٢: ٢٦٣ .

[2] المصدر السابق ٢: ٢٦٢. وانظر البداية والنهاية ٣: ١٦٤.

اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا". قال فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: "بل الدم الدم والهدم الهدم. أنتم مني وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم"[1].

فعلمت من هذه الأخبار أن الهجرة كانت حربا بجميع الكفار من المشركين واليهود. فيومئذ نشأت أمة جديدة، وصارت للنبي ﷺ وأصحابه دار وشيعة. فكملت له شرائط لا يجوز الحرب قبلها (انظر كتاب الهجرة والحرب)[2]. ومع ذلك النبي مقيم بمكة يقاسي الشدائد حتى هموا بقتله. فكمل له شرط الهجرة وحقت سنة الأمم برسولهم. وقد علمت في (٢) و(٣) أن النبي مأمور بالصبر وتحمل الأذى حتى يبلغ السيل الزبى. فحينئذ يهاجرهم، ولا يفر عنهم: بل

١- يعلن أولا بالبراءة

٢- ويجمع أمره

٣- مطمئن بأن الله عاصمه

٤- وينتظر أمر ربه، فلا يبرح إلا على ميقات من الله بهيئةتنادي

٥- بأن الكفار عاجزون عن الإضرار به، كما بيناه في كتاب الهجرة. فلم يكن فرار، ولكن مهاجرة وبراءة على سنة الرسل.

---

[1] تاريخ الأمم والملوك ٢: ٣٦٢، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٦٤، البداية والنهاية ٣: ١٦٠-١٦١، وإمتاع الأسماع للمقريزي ١: ٣٦ صححه وشرحه محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

[2] ما وجدنا هذا الكتاب في آثاره.

(١٢)
ربط السورة بالتي بعدها

فلما كانت هذه السورة سورة الحرب أتبعها الله بسورة النصر للدلالة على أن النصر متصل بالحرب، كما ترى في القرآن كثيرا اتصال هذين الأمرين ؛ وكما تبين في الفصل الرابع. وهذا أسلوب بينته بالأمثلة في بحث الوصل من كتاب "أسلوب القرآن"[1]. وما هذا النصر والفتح إلا رد المسجد الحرام إلى عبادة الله الواحد، ورد ذرية إبراهيم عليه السلام إلى ربها. فتذكر هذا الأمر لفهم ما يأتيك، ولترى أن الهجرة تقشعت عن الوصل والأوبة، والحرب تقشقشت عن السلم والتوبة. فلم تكن بعثة النبي ﷺ إلا بركة لذرية إبراهيم عليه السلام ورحمة للعالمين، كما تجد بعض البيان في تفسير يوسف.

هذا، والله تعالى أعلم. فإن أصبت فله المنة، وإن أخطأت فأرجو العفو.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

---

[1] يعني "أساليب القرآن" .

تفسير سورة الكافرون

فهرس مطالب الفصول